تربيـــة النشيء

تربيـــة دينيـــة إسلاميـــة

أو

رعاية الطفـــــولة في الإسلام

الشيخ محمد عبد الرسول همام

الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على أعظم رائد وخير معلم سيدنا محمد وعلى آله الأطهار وصحابته الأخيار ، وعلى من سار على طريقته وسنته . واتبع هديه إلى يوم الدين .

أضيافنا الكرام :

فضيلة الاستاذ الكبير عميد الكلية

فضيلة الاستاذ المكرم وكيل الكلية

زملائي الأساتذة

أبنائي الطلاب

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . . .

وبعـــد

فبأسم الله وبحمده تفتتح جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ببريدة في مطلع العام الهجري المبارك ـــ موسمها الثقافي ـــ أداء منها لواجبها في التوعية الدينية . وقياما برسالتها في نشر الثقافة الاسلامية . وإسهامها في بحث مشاكل المجتمع ووضع الحلول المناسبة لها عن طريق العلاج الديني ـ علاج السماء الذي هـــو البلسم الشافي والدواء الناجع لكل ما نشكو منه وتشكو منه البشرية من أدواء قد استعصي عليها علاجها ـ وأثقلتها حتى أعيتها ـ وملأت الحياة شرورا حتى عقدتها ـ ووقف الذين يدعون أنهم عباقره العالم أمامها حيارى يتخبطون ، وفي غيهم يعمهون يبحثون لها عن حل فلا يجدون ـ وما ذلك إلا لفساد منهجهم التربوى الذي وضعوه للحياة طبق أهوائهم . تاركين منهج من خلق الحياة وصدق الله حيث يقول : « ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله » .

ويقول سبحانه « ومن اعرض عن ذكرى فإنه له معيشة ضنكا » .

وليس هناك من مخلص للعالم بخاصة الإسلامي إلا بالرجعة إلى منهج الله فإن هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله . ومن اتبع الهدى في غيره أضله الله . هذا ـ وموضوعنا الليلة يتعلق بمشكلة من مشاكل المجتمع وهى : تربية النشىء الإسلامي » ـ أو بعبارة أخرى « رعاية الإسلام للطفولة » والنشىء الإسلامي هو القاعدة الأساسية العريضة للمجتمع المسلم .

فإذا عني به - وربى طبق مبادىء الدين ونشىء تنشية تتفق وتوجيهاته وارشاداته .

وروعي هذا في المنزل ، وفي المدرسة ، وفي الزمالة وفي العادات وفي التقاليد المنبثقة من روح الإسلام ضمنا بعون الله تعالى وتوفيقه - إيجاد مجتمع يطمئن إليه وأمكن إصلاح الحال - وإزالة هذا الكابوس الذي يورق الجميع ويقض مضاجع الآباء والأمهات وسائر المسئولين .

ولنبدأ الآن في موضوعنا مستعينين بالله . وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

مستمعي الكرام ...

إن النشىء — كما نعلم جميعا لا يخرج إلا من بين أبوين وبعبارة أخرى بين زوجين .

ولعناية الدين الإسلامي به قد هيأ لهذا النشىء قبل ظهوره البيئة الصالحة التى يغرس فيها واختار له الأرض الطيبة التى ينبت فيها نباتا حسنا - قال تعالى : « والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكدا » .

ولتحقيق ذلك وضع مواصفات الزوجين الصالحين لتكوين الأسرة التى هى النواة الأولى للمجتمع بعد تحديد أسس اختيارها .

فلنستمع معا إلى القرآن الكريم وهو يقدم لنا تلك المواصفات . وإضعا إياها تحت أنظارنا وملء آسماعنا . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. بسم الله الرحمن الرحيم : « فانكحوا ما طاب لكم من النساء » - « وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله » - فلو تأملنا هاتين الآيتين لوجدناهما قد التقتا عند هدف واحد بالنسبة لاختيار الزوجة ، وبالنسبة لاختيار الزوج ، ذلك الهدف هو « الطيبة والصلاح » .

إذ أن الآية الأولى تطالب بنكاح وتزوج ما طاب من النساء والثانية تطالب بانكاح وتزويج الصالحين من العباد والأماء . وكل ذلك لضمان سعادة الحياة الزوجية ، واستقرارها وتأمينها من الهزات والريب والشكوك التي تشوهها أو تجني عليها وتطيح بها - هذا - من ناحية .

ومن ناحية أخرى لتحافظ على الطفولة التي عساها أن تنشأ بينها - قبل تكوينها وظهورها إلى معترك الحياة وخضم الوجود - وبعدا بها عن المؤثرات الضارة والنتائج الوخيمة المترتبة على العدول عن هذا المنهج .

وجاءت السنة المطهرة لتؤكد هذا الهدف وتعززه ولتكشف الغطاء عن هذه المؤثرات وتلك النتائج عند العدول عن منهج الله في هدا الشأن فيقول ﷺ : (إذا أتاكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير) .

فتنة تحطيم المجتمع وتقوض دعائمة . وفساد يتسع مداه ويمتد ضرره ويستشري أذاه ولا يعلم مدى تدميره في المجتمع إلا الله . ومن هنا يأتي مرة ثانية تأكيده ﷺ على التزام الهدف وعدم العدول عنه مهما كانت الدوافع فيقول في صورة المؤكد الحريص على الخير (فاظفر بذات الدين تربت يداك) .

ثم تأتي بعد ذلك الآيات القرآنية لتوضح واقع الناس في هذا المجال فتصنفهم إلى صنفين وتقسم الزوجات والأزواج إلى قبيلين . قبيل الطهر والعفاف وقبيل الفجر والفساد ـ وقد التقى كل فريق بمن يجانسه ، ويناسبه ويشاكله يقول سبحانه (الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات) .

مع الثناء على الفريق الثاني بقوله سبحانه « أولئك مبرءون مما يقولون » ـ وهذا التنوع يشبهه قول القائل « إن الطيور على أشكالها تقع » وقول الآخر : « وكل قرين للمقارن ينسب » .

وليت الأمر وقف عند هذا الحد ـ بل تعداه إلى أن بعض الناس ينظرون إلى الزواج الذي هو أصل الطفولة وأساسها ـ على أنه نوع من الإرتباط الذي يقيد الحريات فعزفوا عنه بل اتجهوا إلى الغائه من جهتهم ليجروا كما يشاءون وراء الخنا والفساد والدعارة السافرة والمقنعة ، المعلنة منها والمستترة عن طريق الساقطات الآثمات والخليلات الفاسدات وفضلا عما في هذه النظرة من حرب لله ورسوله وجماعة المسلمين فإن فيها الخطر على المجتمع المسلم بكثرة اللقطاء وأولاد الزنا ممن

يشكلون عبئا ثقيلا على الدولة ويكونون كلا على الأمة بل يكونون داء وبيلا وشرا مستطيرا ومرضا معديا للوسط الذي يعيشون فيه ، وإلى هذا يشير القرآن الكريم بقوله (ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا) - وقوله سبحانه (والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما .

هذا هو موقف الإسلام من الطفولة قبل تكوينها تخير لها أطيب البيئات وهيأ لها أنسب الظروف وأطهر مواطن الأنبات ثم راعي الأجنة اثناء التكوين وهي حمل في بطون الأمهات فاباح للأم الأفطار في رمضان إذا خافت على جنينها أو نفسها أو هما معا .. وبعد الولادة كلف الوالدات بالأرضاع والآباء بالنفقة مدة الرضاع بل ومدة الحضانة . قال تعالى : « والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف » . ثم تعهدها بالرعاية والتوجه السليم على وجه لا تشقى معه ولا تشقى غيرها وذلك لتؤدى دورها في مستقبل الأيام بأمانة وفي أمان واستقرار .

مستمعي الكرام ...

وإذا كانت الأسرة هي اللبنة الأولى في المجتمع وهي الأساس الذي يقوم عليه بناؤه . وصحة الأساس إنما تكون بصحة اللبنات وسلامتها ليقوم البنيان سليما مؤمنا لا يخاف انهياره ولا يخشي تهدمه .

فإن بناءها لابد له من دعائم ومقومات وحصانات تحفظ ما ينتج بينهما من أفراد

خيفة أن تتسرب إليهم الجراثيم المعدية فتؤثر فيهم . جراثيم فساد العقيدة والعادات والتقاليد والبيئة والزمالة والتوجيه وكلها معاول هادمة للطفولة مفسدة لطهارتها ونقائها وبراءتها تلك التى خرجت بها من أرضها الطاهرة والتى يشير إليها حديث « كل مولود يولد على الفطرة » .

ولذا فإن الدين الإسلامي حرص كل الحرص على الأبقاء على هذا النقاء ودعمه عن طريق التربية الدينية المناسبة والمتدرجة بتدرج سن الطفل فهى تكبر كلما كبرت الطفولة وتنمو بازدياد نموها لتكون لها كالمصل الواقي الذي يعطي للطفل في شهره الثالث من ولادته لتحصين جسمه ضد بعض الامراض التى يتعرض لها في هذه الفترة المبكرة من عمره هذا .

والأطفال في صغرهم ما هم إلا كلدائن طرية غضه يمكن أن نصوغها ونشكلها طبق ما نريد فإن شئنا إن نصوغها جميلة المقاطع ، حلوة المفاتن . جذابة المرأى كان ذلك ـ بحول الله ـ هينا ميسورا وأمرا سهلا مقدورا ـ وإن رمنا أن نصوغ منها ما ينفر البصر ويقزز النفس كان ذلك أيسر وأسهل .

أجل ـ هكذا شأن الأطفال فقد خلقهم الله على فطر سليمة وقلوب نقية .

ومن هنا تبدأ تربيتهم وتحدد المسئولية وتقرر التبعات ويقع العبء الأكبر من هذا كله على رب الأسرة وربة البيت والباقي على المدرسة والبئية والصداقة والعادات والتقاليد .

وإنها لتسرى إلى الطفولة سريان الكهرباء في أسلاكها سريعة قوية فإذا اقترب منها إنسان أهلكته ودمرته إن لم تكن صالحة .

ومن هنا كان لابد من الحيطة والحذر وأن يكون المشرفون على تربية الناشئة بخاصة الآباء والأمهات يقظين وبالله مؤمنين ، وبالأخلاق الكريمة متمسكين وبالشريعة عاملين ، ولها مطبقين ـ حتى يشب الأولاد على شاكلتهم موحدين لله . متمسكين بدينه . مقتدين في ذلك بما شاهدوه في آبائهم متطبعين بما لمسوه فيهم ـ يقومون بذلك من تلقاء أنفسهم وبدافع من داخل ذواتهم ، يساعدهم على ذلك ما أودع الله فيهم من غريزة التقليد والمحاكاة التى تكون مشبوبة عندهم في هذه السن .

ومن هنا ـــ تبدأ التربية الإسلامية المناسبة لسنهم في ميدان الروحانية وعلى ساحة المجتمع المسلم تلك التربية التى حدد أطارها المربي الأكبر محمد ﷺ في قوله « مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين وأضربوهم عليها وهم أبناء عشر وفرقوا بينهم في المضاجع » .

منهاج تربوي أصيل نابع من صميم الوحي الآلهى ومأخوذ من التشريع السماوي بنى على أدق الموازين وأحكم قواعد التربية .

ولا غرو فمقرره محمد ﷺ عن ربه يقول تعالى « وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحي » .

ومن المسئول عن تطبيق هذا المنهج الموضوع لتربية النشء فى هذه المرحلة مرحلة ما قبل العاشرة إنه المنزل أو الأسرة — فيجب أن تكون صورة مثالية في التدين وفي الخلق وفي السلوك وفي لغة التخاطب مع الآخرين وفي العادات كالأكل والشرب ، وفي كل عمل نافع جاد ليحذو الأطفال حذوها وينتهجوا نهجها فمعاملة الزوج لزوجه — مثلا — بالحسنى مع الحزم يعطي الطفل انطباعا كليا تتشربه نفسه ويعيه قلبه . فيفهم الجدية في الحياة - والخلف والنزاع بينهما يعطيه انطباعا عكسيا - وليس معنى الجدية أن نكون قساة غلاظ الأكباد فإن الإسلام يأبى هذا وليس من دأبه لا مع الأزواج ولا مع الأولاد ولا مع غيرهم فإن الملاطفة في موضعها مطلوبة .

ولقد ضرب النبي ﷺ أروع الأمثلة في ذلك فها هو ذا ﷺ كان يداعب زوجه أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها بـل كانت تسابقه ويسابقها في الجري - فسبقته في المرة الأولى وسبقها في المرة الثانية ثم قال لها يا عائشة هذه بتلك .

وها هو ذا الحسن بن على رضى الله عنهما قد التقم تمرة من تمر الصدقة فقال له رسول الله ﷺ كخ كخ - ارم بهـا - أما علمت أنا لا نأكل الصدقة وفي رواية فنظر إليه فإذا هو يلوك تمرة فحرك خده ثم قال ألقها يا بني ، ألقها يا بني .

وروي عن أبى حفص عمر بن أبى سلمة ربيب رسول الله ﷺ قال « كنت غلاما فيحجر رسول الله ﷺ وكانت يدي تطيش فيالصحفة فقال لي يا غلام : سم الله

تعالى ، وكل بيمينك ، وكل مما يليك فما زالت تلك طعمتي بعد - ومن هنا - فعلى الأسرة أن تعلم بنيها - الكرم والرحمة بالإنسان والحيوان وما إلى ذلك من خلال الخير - تعلمهم حب الناس جميعا وبرهم وفي مقدمتهم أقرب الناس إليهم - فقد جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال له : من أحق الناس بحسن صحابتي ؟ قال : أمك قال ثم من قال أمك . قال ثم من قال أمك قال ثم من قال أبوك وفي رواية ثم أدناك فأدناك .

ويأتي آخر فيقول : يا رسول الله إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني ، وأحسن إليهم ويسيئون إلي ، وأحلم عنهم ويجهلون علي . فقال لئن كنت كما قلت فكأنما تسفهم المل ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك .

هذه الأمثلة الرائعة من نماذج التربية لو طبقها المسلمون كل في محيطه في بيته ووسط أسرته وعلى الناشئة وبصروا بها لصارت لهم ديدنا وعادة تصحبهم إذا ما كبروا ، فيطبقونها كما طبقها آباؤهم والمشرفون على تربيتهم من قبل .

والآن وبعد هذا التمهيد يلزمنا أن نعرف منهج التربية المناسبة للطفولة إلى سن العاشرة ثم المنهج الذي يتبع بعد هذه السن - وكلا المنهجين قد خططه رسول الله ﷺ أما الأول فقد حدده ﷺ بقوله : مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين واضربوهم عليها وهم أبناء عشر كما أسلفنا وقد لوحظ في هذه السن المبكرة أن الطفل يدرك ما حوله ويفهم ما يلقى إليه ويميز الضار من النافع . فوضع له من مبادىء الإسلام ما يتلاءم ومستواه . ليصاغ عليها عبادة ويصاغ عليها خلقيا ،

ويصاغ عليها اجتماعيا ويصاغ عليها سلوكيا — ليتعودها ويشب عليها وينهج على أسلوبها شابا فشيخا فكهلا :

ينشأ الصغير على ما كان والده إن الأصول عليها ينبت الشجر

وينشأ ناشيء الفتيان منا على ما كان عوده أبوه

أما صوغه عبادة :

فكلنا يشاهد ويعرف أن الطفل حين يرى والده يتوضأ أو يصلي فإنه يأتي إلى جانبه محاولا تقليده فيتوضأ كما هو يتوضأ ، ويحاكيه أيضا في صلاته فهو يكبر كما هو يكبر ويركع كما هو يركع ويسجد كما يسجد ومعنى هذا أن لديه استعدادا فطريا للتقليد لكل ما يراه ولتقبل ما يلقى إليه وما يشاهده من أقوال وأفعال .

وديننا الحنيف ينتهز هذه السن التى تعمل فيها غريزة التقليد عملها في الطفل ليدربه ويغرس فيه حب العبادة والتمرين عليها .

فإن حاول هو التهرب منها جريا وراء غريزة اللعب ضرب عليها ضربا غير مبرح حتى العاشرة ليعلم أن للعب وقتا وللجد وقتا . وأن لله حظا ثم للنفس بعد ذلك حظا — وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا .

ولتعميق هذا المفهوم في نفس الطفولة كان الآباء في العهد الأول يصطحبون أولادهم معهم إلى بيوت الله ليعتادوا التردد على المساجد ويأخذوا أنفسهم بارتيادها

والذهاب إليها حتى تصبح لديهم مألوف عادة ومألوف عبادة ـ وفي الصلاة وفي المسجد ندرك ملحظا تربويا هاما ومغزى كبيرا من وقوف الأبناء وراء آبائهم . ذلك أن الابن يخلف أباه في مستقبل الأيام ويقوم مقامه عندما يتقدم به العمر . في تحمل أعباء الحياة بل إنه يكون خليفته ووريثه عندما يفارق هذه الحياة بانتقاله إلى جوار مولاه .

والدين حين يختار للطفل هذا الموقف في الصلاة ويحدده له إنما يبصره صغيرا ويدربه على هذه الخلافة التي ستئول إليه في الكبر .

وما أعظمه من مران عملي على حياة سيخوض غمارها ويجول في مضمارها . ويكون فارس حلبتها .

إن أحدث قواعد التربية قامت على هذا الأساس أساس الخبرات المكتسبة من التدريب المباشر الذي هو أساس النجاح في الحياة .

ثم له مغزى آخر وراء ذلك .. وهو أن الطفل يشعر من بدء أمره أنه أصبح موضع اعتبار ويحس بنفسه أنه صارت له مكانة في المجتمع لا يعتدى عليه فيها ولا يزحزحه عنها أي كائن من كان فصفه قد خصص له .

ومن هنا يشعر أيضا من صغره بالمسئولية ويحس بالتبعة . ويدرك أن له وضعا واعتبارا يجب عليه أن يحافظ عليه دون تفريط .

ومن هنا تتكون فيه عوامل الشخصية ، وتكبر فيه القيمة الذاتية فيحرص عليها ويمنع غيره من خدشها .

بل إنه فوق هذا وذاك يحس - وقد تقدم صفوف النساء ووقف أمامهم في صفه أنه اعلى شأنا من بعض بني جنسه وأن مكانته المستقبلة هى المبدأ القرآني العظيم « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض » .

فأية تربية حديثة راعت مثل هذه الأسس وقامت على مثل تلك القواعد .

لقد كان المجتمع الإسلامي الأول مجتمعا يحترم الصغير ويوقر الكبير ويرعى الفوارق بين الجنسين .

تلك الفوارق التى ألغاها ظلما وعدوانا المجتمع المعاصر . بحجة المساواة بين الجنسين . مما فتت العلاقات وهدم الأخلاق . وحطم القيم . وأضاع التقاليد الكريمة الموروثة التى تميز بها هذا الشرق .

وعدت المرأة من جراء ذلك تزاحم الرجال في ميدان الأعمال بحجة أنها مساوية لهم - ونسى المجتمع المعاصر الذي أطلق لها الحرية في كل شيء - وترك لها الحبل على الغارب - قول الله تعالى « وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى » .

ونسى « بما فضل الله بعضهم على بعض » - ونسى « فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء » « أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى».

ونسي « المرأة ناقصة عقل ودين » .

ونسي « لا يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة » .

ونسي « رفقا بالقوارير » .

ونسي « أخروهن من حيث أخرهن الله » في موقفهن في الصلاة .

ونسي « انها لا تؤم الرجال » .

ونسي « أن المرة كلها عورة إلا وجهها وكفيها وقدميها » .

ونسي « ونسي ، ونسي الخ ـ هذا » .

وكما دفع الدين بالطفولة إلى الناحية العبادية واعتبر الآباء المسئولين الأول عن تنفيذها .

كذلك اعتبرهم مسئولين كاملي المسئولية عن تدريبهم أخلاقيا عن طريق الأسوة الحسنة من الآباء والأمهات أنفسهم إذ هم أول المخالطين لهم ، وفي مقدمة من ينقل عنهم الأطفال مشاهداتهم من أقوال وأفعال .

فلو قلت لطفلك يا « بابا » ردد نفس اللفظ .

ولو قلت له « عيب » أعاد عليك نفس الكلمة وبذات اللهجة وبعين الطريقة .

ومن هنا كان علينا أن نحتـــاط في التعبير وأن نعرف أنه إذا كانت ألفاظنا حسنة مهذبة هادئة . خفيضة النبرات سار الطفل على نفس المنهج ـ ومن هنا أيضا

يجب تجنب اللفظ النابي القبيح . ذى الصوت العالي المرتفع قال تعالى « واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » .

وعلينا أيضا أن نلتزم مخاطباتنا الآخرين اللفظ المهذب وإلا فسدت التنشئة . وساءت التربية « الزموا أولادكم وأحسنوا أدبهم » لأن يؤدب أحدكم ولده خير من أن يتصدق بصاع » .

وإذا انتقلنا من الناحية العبادية في الحديث « مروا أولادكم بالصلاة » إلى الشطر الآخر منه وجدناه يمثل التوجيه الاجتماعي والأرشاد الهادف المبادىء . إلى طريق معاملة الآخرين سلوكيا — واقتصر في هذا الحديث على أخطر شيء وهو ما يمس الناحية الجنسية وهو قوله ﷺ وفرقوا بينهم في المضاجع - وذلك ليقيم هذه العلاقة على أساس من التقديس والطهر والعفة والنزاهة على نهج عملي تطبيقي داخل نطاق الأسرة وبين الأخوات والإخوة .

حتى إذا شب أطفالنا عن الطوق وتحرك فيهم العامل الجنسي وجدوا الحصانة ترعاهم والأمانة تحكم تصرفهم . وتتابع في أمان واطمئنان تحركهم .

إنها الصيانة الحصينة . ينام الطفل في مخدعه والأنثى في مخدعها كل بمعزل عن الآخر - استقلال في المبيت وتفرد في المضجع يعود كل منهما على الحياة المستقبلة مع بعد عن الريبة في النواحي الجنسية .

حتى إذا تحركت في نفسيهما عند الكبر وجدا المصل الواقي وقد أدى واجبه

وقام بمهمته في إبعادهما عن الحرام في هذه الناحية ودفع بهما إلى التماس سد هذا الفراغ الجنسي عن طريق الحلال المشروع ـ هذا .

ومن قبيل تدريب الإسلام للطفولة سلوكيا إرشاد القرآن الكريم لنا إلى آداب البيوت يقول سبحانه وتعالى : يأيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر ، وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ـ ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن ، طوافون عليكم بعضكم على بعض .

ويقول الله سبحانه وتعالى : « وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم » والأمثلة كثيرة وعديدة .

أيها الإخوة الأعزة . أبناءنا الطلاب ...

إن تربية النشء الإسلامي على منهج الله ، وأمر الآباء بتوجيه البنات والأبناء لم يتوقف عند سن العاشرة بل سار معها في الطريق .

ويمشى متدرجا مع الطفولة مرشدا وموجها يوما بعد يوم مع التركيز على الأسس التى أرساها قبلا متعهدا لها بالتقوية والتغذية حتى يشتد عودها وتقوى ثمارها .

فلقد نادى القرآن بتحميل المسئولية مسئولية الإرشاد والتوجيه لكل من ولي أمر غيره حتى يخلص نفسه ومن تولى أمرهم من النار . قال تعالى « يأيها الذين آمنوا

قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » .

قال بعض المفسرين : علموهم وأدبوهم .

وها هو ذا الرسول الأعظم ﷺ وهو المرشد والمعلم الأول يعطى هذا المنهاج حينما كان يسير على راحلته لابن عمه عبد الله بن عباس رضى الله عنهما — وهو غلام صغير لم يبلغ الحلم بعد .

يروي الترمذي حكاية عن ابن عباس نفسه قال : كنت خلف النبي ﷺ يوما فقال لى (يا غلام - إني أعلمك كلمات - احفظ الله يحفظك - احفظ الله تجده تجاهك - إذا سألت فاسأل الله - وإذا استعنت فاستعن بالله - واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك - وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك - رفعت الأقلام وجفت الصحف .

إنما مرحلة أخرى للطفولة وقد شبت عن الطوق يسير تدريبها فيها على نفس المنهج الإلهي الذي رسم لها في المرحلة السابقة مع ربط المرحلتين بشكل أوسع في الخطة التأديبية والتعليمية فهى تزودها عباديا وخلقيا واجتماعيا وسلوكيا بما يكمل الشخصية ويصقل النواحي المختلفة في جوانب الحياة طبقا للنمو العقلي والجسمي والإدراك الفكري .

إنه يعطيها شحنة تعمق عقيدتها ، وتمدها بطاقة تجعلها تواجه الحياة بكل قوتها في ثقة واطمئنان ـ وقد جاءت في صورة نصيحة محددة في كلمات يسهل حفظها ويمكن بيسر إدراك معناها ومرماها ـ وكيف لا وقد صدرت من الرسول ﷺ الذي أوتي جوامع الكلم . موجهة إلى ذى القلب العقول ، واللسان السئول حبر الأمة ابن عباس ومما حملته هذه الكلمات من أهداف التربية الدينية : ـ

١ ـ أن من راقب الله والتزم منهجه وطبق شرعه وقاه الله من كل ما يتوقع شرور وأضرار وحفظه على كل حال حفظه في عقيدته وفي دينه وفي ماله وفي عرضه وفي صحته وفي أولاده الخ .. (احفظ الله يحفظك) .

٢ ـ أن من يلزم ذلك ينجح في مسيرة حياته مهما اتجه وحيثما قصد لا يخيب له مسعي ولا يضل له عمل ويكون التوفيق حليفه في كل شأنه ـ لقد كان مع الله فكان الله معه مسددا وموجها (احفظ الله تجده تجاهك) « إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا » .

٣ ـ أنه في كل حاجاته ومطلوباته عليه أن يتجه إلى مجيب الدعاء ومحقق الرجاء واسع العطاء (إذا سألت فاسأل الله) « أدعوني أستجب لكم » (وإذا سألك عبادي عني فأني قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعان) ثم لا يضع آماله عند البشر إنما يضعها في ساحة ذى الإحسان وصدق القائل (لا تسألن بني آدم حاجة : وسل الذي أبوابه لا تحجب فالله يغضب إن تركت سؤاله : وبني آدم حين يسأل يغضب) .

٤ ـ إذا عجز عن عمل ووقفت حيلته وطلب العون للتغلب على عقباته فليكن

المستعان به الأول هو الله وحده أما الخلق فكلهم مسخرون تحت أمره « وإذا استعنت فاستعن بالله » (إياك نعبد وإياك نستعين) (استعينوا بالله واصبروا) .

٥ ــ وأخيرا يعطيه جرعة إيمانية توثق صلته بالله وتؤكد أنه لا أثر لمن سوى الله في أموره كلها ـ لأن القــدر الألهي يحكمها ويوجهها . وعندئذ يواجه الحياة وما تأتي به بكل اطمئنان نفسي ورضا . ورباطة جأش ـ فليس في مقدور أحد أن ينفعه بشيء لم يرده الله له ولا أن يضره بشيء لم يقدره عليه ـ فقد سجل على كل إنسان ما يحل به من خير وشر ولا سبيل لأحد إلى تغييره أو تحويله أو تبديله فقد رفعت الأقلام وطويت الصحف .

وهذه تضفي عليه ذاتية تشعره بأنه ليس لأحد عليه تأثير وتمنحه حرية مطلقة فيها كمال العبودية لله وحده .

وهكذا في انسجام متزن نرى كيف ربط الإسلام الطفولة بالخالق عن طريق الصلاة أولا التي هي أبرز وأقرب وسيلة عملية للاتصال به حتى كانت هي الفارق بين المسلمين وغير المسلمين « العهد بيننا وبينهم ترك الصلاة فمن تركها فقد كفر » كما ربط الطفولة أيضا بالمجتمع المسلم عن طريق بيوت الله المساجد التي تجمع بين جنباتها نوعيات المسلمين « رجالهم وولدانهم ونسائهم » في نظام لا يعرف الطبقية . وإنما يعرف المفاضلة والأفضلية عن طريقها العادل الإسلامي « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

فالصفوف في ترتيبها « الرجال فالصبيان فالنساء » روعى فيها تلك الأفضلية فالصف الأول أفضل من الثاني (إن الله وملائكته يصلون على الصف الأول) .

أيها الأخوة الأعزاء ...

وإذا كان الإسلام قد عنى بالطفولة من ناحية التربية الدينية بمعناها الخاص فإنه لم يهمل جانب التثقيف الشامل والتعليم العام الكامل مما يوسع آفاق التفكير . ويفتق جوانب العمل في كل نواحي الوجود .

ولذا نجد أول آيات القرآن الكريم تقرر هذا المبدأ ـ اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم . « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » . « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط » . « إنما يخشى الله من عباده العلماء » . « وقل رب زدني علما » إلى غير ذلك من الآيات العديدة التى تبين فضل العلماء والعلم في مجالاته المنوعة .

ثم ها هو ذا الرسول ﷺ يأمر بما يشبه الفصول الدراسية التى نراها اليوم في تكوين مجموعات لتعليم القراءة والكتابة ومحو الأمية ـ فقد جعل من بين طرق فداء الأسري أن يعلم كل أسير عشرة من أولاد المسلمين القراءة والكتابة ـ كما أمر عبد الله بن سعيد بن العاص ـ أن يعلم الناس الكتابة بالمدينة وكان يحسن الكتابة ولم يقتصر الأمر في التعليم على الذكور بل أمر بتعليم النساء فعن الشفاء

بنت عبد الله أنها قالت دخـــل رسول الله ﷺ وأنا عند حفصة ـ فقال لي : ألا تعلمين هـذه رقيـة النملة كما علمتيها الـكتابة بل إن النساء أنفسهن طلبن منـه الوعظ والتثقيف قائلات له ﷺ : غلبنا عليك الرجال فاجعل لنا يوما ـ فجعل ﷺ لهن يوما يعظهن فيه ويذكرهن .

ومن هنـا نرى أن تعليم النساء على انفراد دون اختلاط ليس أمرا مستحدثـا فقد وقع على المستوى الخاص « كتعليم الشفاء لحفصة ـ رضى الله عنها ـ وعـــلى مستوى التجمع العام في المسجد الذي يمثل الفصل الدراسي في داخـل دور التعلـيم ولا شك أن المسجد ينطبق عليه هذا الوصف فهو الجامعة الإسلامية الأولى ـ وهو مركز الإشعاع العام كما نعلم جميعا . وتعليم المرأة لا شك أن فيـــه عناية بالطفولة فليست المرأة الجاهلة في تربية أبنائهـا وفي معالجة مشاكلهم كالمرأة المتعلمـة « قال تعالى هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » « واذكرن ما يتلى في بيوتـكن من آيات الله والحكمة » .

وقد أمر ﷺ الأشعرين بأن يعـلموا أهليهم وجيرانهم القراءة والـكتابة دون تفرقة بين ذكر وأنثى .

بل إنه ليأمر الآباء بأن يعلموا أولادهم ويدربوهم على السباحة والرماية وركوب الخيل ـ ذلك ليفهمهم أن الدين والدنيا صنوان لا يفترقان يسيران جنبا إلى جنب فتعمير الدنيا من الدين « هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها » « خلـق لكم

ما في الأرض جميعا » ـ وها هو ذا القرآن الكريم يدلنا على التجارة وعلى كيفية الزراعة والصناعة مع تنبيه أذهاننا إلى التبصر في آياته والتأمل في مخلوقاته (وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد) إنهـــا دراسة للدين من خلال الحس والمشاهدة لآيات الله في هذه العلوم الكونية التي تعمق العقيدة في كل نفس قال تعالى (أفلم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء) (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) (وفي أنفسكم أفلا تبصرون) .

وعليه فيجب أن تكون التربية الدينية بخاصة العقيدة للصغار والكبار عن طريق المشاهدة كما تكون عن طريق التلقين .

والقدوة الحسنة ، والتدريب العملي على العبادات للناشئة في المساجد وبين دور التعليم ومن خلال منافذ العلم المختلفة ـ وهذا هو المنهج الذي يدعونا إليـــه القرآن الكريم نفسه ـ يقول سبحانه ـ (فلينظر الإنسان مم خلق ـ خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب . الآيات) .

ويقول (فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حبا ، وعنبا وقضبا ، وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا متاعا لكم ولأنعامكم) .

ولقد ضرب الأنبياء عليهم الصلوات والسلام من أنفسهم المثل التطبيقي العملي

للعمل الديني والدنيوي معا ـ فكما دعوا للدين وطبقوه . عملوا لتعمير الدنيا وباشروا كثيرا من الحرف والصناعات تعليما لشعوبهم ولأن تعميرها جزء من الدين بدليل أنه دعا إليه فها هو ذا ﷺ قد تاجر مع أعمامه وتاجر في مال خديجة وها هو ذا ـ زكريا عليه السلام كان نجارا وداود كان حدادا ونوح أنشأ سفينته التى تعتبر أساسا للترسانة البحرية كما يقول المعاصرون ـ وشواهد ذلك من القرآن الكريم . « وألنا له الحديد أن أعمل سابغات وقدر في السرد » « وأسلنا له عين القطر » « وعلمناه صنعة لبوس لكم » الآية (أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا ويصنع الفلك) وفي بناء المصانع والقناطر (وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون) إلى ما لا يحصى من الأمثلة مما ينفع ويفيد الإنسانية ويعمر الحياة التى نعيشها .

ومع كل هذا يجب أن يكون في الاعتبار وفي المقام الأول « التعليم الديني » المتخصص وتعني به الدولة كما يعنى به الشعب وأن تكون دراسة العلوم الأخرى في إطاره ومعينة عليه لتفهم الأسرار الكونية التى أودعها الله في مخلوقاته وبحيث لا تصطدم معطياتها مع معطياته ـ لأن التعليم الديني هو الأساس وهو صمام الأمن ولذا حض الله عليه كل جماعات الأمة ليتخصص بعضها في هذه الناحية قال تعالى : « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » .

وبعد ـــ فهل مجتمعنا المسلم المعاصر على مستوى البسيطة ـ قـــد قام بدوره

الإيجابي نحو النشء أم فرط فيه ووقف موقفا سلبيـا حتى أضاعه ثم وقف ينظر إليه متأففا ينعي حظه بل يمقت مرآه ومرعاه ثم يشكو بعد ذلك صنيعته ويخشى أذاه .

ولنا أن نتساءل على من تقع مسئولية هذا الضياع ، ومن الذي يتحمل تبعـات هذا التفريط وهل من علاج لتشرد النشء وتمزقه وانفراط عقده — مما لاشك فيه أن من يتولون أمر النشء أيا كان وضعهم هم المسئولون وفي المحل الأول من المسئولية وعليهم كل الكفل من تبعات هذا الاهمال وذلك التقصير خاصة الوالدين فإن الله سائل كل راع عما استرعاه حفظ أم ضيع حتى يسأل الرجل عن أهل بيته . وسيقال للملائكة يوم القيامة وقفوهم إنهم مسئولون لأنهم فرطوا في هذه الأمانة ولم يؤدوا ما ألزمهم الله به حيال من أمرهم إليهم حيث تركوا تأديبهم وتعليمهم دينيـا أولا ودنيويا ثانيا .

ونسوا أو تناسوا أن من أدب ولده صغيرا سر به كبيرا — وأن التعليم في الصغر كالنقش على الحجر — وقد أوضحنـا فيما سلف كيف يسلك الآباء مع أبنائهم ليقودوهم إلى التربية الحقة وإلى جانب هذه المسئولية تأتي مسئولية دور التربية والتعليم متمثلة في دور القائمين عليها والمنفذين لمناهجها ولخططها التعليمية — ومن قبل كل دور واضعي هذه الخطط . أما دور التعليم والتربية — فعليهـا أن توسع رحابها وتفتح لتستوعب أكبر قدر من طالبي العلم والمعرفة فطلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة حتى تقل الجهالة أو تنعدم .

وقد أخبر ﷺ عن تأديب ربه له في امتنـان وشكر له في قول « أدبني ربى فأحسن تأديبي » كما أخبر الله عن تعليمه له ممتنـا عليه بقوله سبحـانه « وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظـــيما » كما أخبر ﷺ بأن الخير كل الخير يكمن وراء التعليم الديني « من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين » .

وإذا فهم الإنسان دينـه عمل للحياتين الدنيـا والآخرى « وابتـغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » . « ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » .

وعلى المخططين للتربية والتعليم أن يضعوا نصب أعينهم دائما أن تكون المنـاهج مستمدة من مبـادىء الإسلام ولن يكون ذلك إلا إذا كان واضعوهـا ممن فهموا فهما عميقا أصول التربية المستمدة من كتاب الله عز وجل وهدي رسوله ﷺ .

وعلى المنفذين لهذه المناهج أن يكونوا على اقتناع برسالتهم وأن ينفذوها نصا وروحا يحدوهم الصالح العام مع بذل قصارى جهـــدهم في تعليم طلابهم ومتابعتهم أخلاقيا وسلوكيا وأن يكونوا هم أنفسهم المثل الأعلى لهم في كل التصرفات ليقتفـوا أثرهم ويحذوا حذوهم وبهذا نكون قد وضعنا أيدينا على المشكلات وفي الوقت

ذاته أنر نا الطريق لمن يريد الإصلاح بحق و بإخلاص استعادة لسالف مجدنا . ورفعا للمعاناة التى تثقل كواهلنا و نئن من ويلاتها .

« قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين » .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،،،

الشيخ محمد عبد الرسول همام
جامعة الإمام محمد بن سعود بالقصيم